خصوصية الانتماء والتشبث في رواية عش الجمر
للكاتب والروائي العراقي زهير الهيتي.

The peculiarity of belonging and clinging in the novel "Ashes Aljamr" by the Iraqi writer and novelist Zuhair Al-Hiti Prof. Dr. Ensaf Salman Alwan

أ.د.إنصاف سلمان علوان
جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الانسانية
insafsalman@yahoo.com

تاريخ الاستلام:2022/01/13 تاريخ القبول:2022/02/14

الملخّص:

يرتكز هذا البحث في اشتغاله على سمات الثقافة الاثنوغرافية وخصوصياتها مثل الهويات المتقدة في الادب وما تمثله في التعبير عن مقاومة التلاشي، وترسيخ هويات اخرى الى جانب الهوية المركزية التي يوسم بها الادب العربي والاسلامي، والقول بالتعدد والاختلاف .

وفي محاولة لتشخيص سمات الكتابة لهذا النوع من الأعمال الروائية، ورصد تفردها ستكون رواية عش الجمر للكاتب والروائي العراقي زهير الهيتي هي ميدان اختبار حدود اللغة وإيصال الفردي بالسياسي، بوصفها نموذجاً عن أدب المعترضين وخطاباً احتجاجياً كنوعٍ من تجسيد الأنا والهوية الجامعة ضمن المجتمع الواحد، في حكايةٍ خارجة من جمر المكان الذي مثلته قرية كيش الواقعة في منطقة الفرات الاوسط شرق محافظة بابل، وهي تربض على كنوزٍ ثمينةٍ من الآثار يعود تاريخها الى خمسة آلاف سنة، يقابله فقر مدقع لسكانها الغارقين في مستنقعٍ من المشاكل الكامنة التي تتناسل مع الاجيال، حيث تحفر مكانها هناك في العقل الجمعي على إنها قضاء وقدر، وأمر مسلم به ولا فكاك منه.

الكلمات المفتاحية: الاثنوغرافية، الثقافة، الانتماء، عش الجمر.

ABSTRACT:

This research paper is based in its work on the features of ethnographic culture and its peculiarities, such as the emerging identities in literature and what they represent in the expression of resistance to fading, and the consolidation of other identities besides the central identity that characterizes Arab and Islamic literature, and the issue of plurality and difference.

In an attempt to characterize the writing characteristics of this type of novel, and to monitor its uniqueness, the novel "Ashes Aljamr" by the Iraqi writer and novelist Zuhair Al-Hiti will be the field of testing the limits of language and connecting the personal to the political, as a model for the

literature of the objectors and a protest discourse as a kind of embodiment of the ego and the collective identity within one society, in a story Emerging from the coals of
the place represented by the village of Kish located in the middle Euphrates region, east of Babylon Governorate in Iraq, which is lying on valuable treasures of antiquities dating back five thousand years, offset by the extreme poverty of its inhabitants who are mired in a quagmire of latent problems that interbreed with generations, where they dug their place in the collective mind as predestination, and as an accepted and inextricable matter.

key words: ethnographic; culture; Ashes Aljamr; belonging.

المقدّمة:

ينسج الكاتب احداثاً زمنية تجري في بداية التسعينيات وقت دخول قوات التحالف الدولية لمعاقبة الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين على احتلاله دولة الكويت واستباحة أرضها، وهي لا تبشر بالخلاص، بل تجعل الشخصيات تورط نفسها حد الغرق في مستنقع مآسي العراق بغزو الكويت ضمن إطاره الزمني، وهو يوحي بأن كل هذه الاحداث السياسية ما هي إلا جزء من ليل العراق الطويل الذي يتشابه مع نفسه اليوم، حتى بعد مضي ثمانية عشرة سنة من زوال حكم ما قبل 2003، وعلى الرغم من إن موضوعة الأقليات/الصابئة والمفاهيم الثابتة للهويات الدينية شكلت المحور الأهم في رواية عش الجمر، غير أنها لم تكن الشاغل الوحيد لحوارها السردي، فقد استحضر الكاتب بعضاً مما كان يختبىء في اعشاش القرية من مشاكل خطيرة مثل: عدم قبول الأغيار في ثقافة تصر على مبدأ الفصل بين الاديان والمذاهب والاعراق، ولهذا الامر من يبقي عليه متقداً لاستغلاله وقت حاجة زعيم القبيلة وكبيرها، والاثار المدمرة للحروب المتعاقبة التي خاضها شعب العراق بالنيابة عن زعيمه ورغباته الهوجاء، وقضايا امتهان النساء وغسل العار وغيرها الكثير من المسكوت عنه في واحدة من البيئات العراقية المثقلة بالألم، يسوقها الراوي عبر حبكته السردية لتصل ببطله زعفران الى القرية التي تبرع في تكديس الاعوام والتواريخ والنكبات1، فهو شاب صابئي يرغب في تكوين ذاته خارج إطار مجتمع طائفته المنغلق.

بطل الرّواية:

ينتمي زعفران بطل الرواية الى طائفة الصابئة المندائيين والتي تضطر كباقي الاقليات لحالة الانزواء خوفاً من طحن هويتها الفرعية في ظل نظام سياسي لا يؤمن سوى بهوية الزعيم الاوحد ودمجها قسراً في هوية حزبه الحاكم، مما يضطرهم- كأقلية تبحث عن ابرع سبل البقاء- للتفكير في المهن التي تكرس النفوذ، وتفسح مجالاً لهم وسط الاكثرية، فالطائفة تحتكر "مهنة صياغة الذهب والفضة في بلاد ما بين النهرين منذ اجيالٍ غابرة إلى أن صارت هذه المهنة المرادف التعريفي لكلمة صابئي، وجزء مهم من هويتهم وديانتهم"2، فوالد زعفران يؤمن بأن مهنة صياغة الذهب التي توارثتها الطائفة عبر الاجيال هي التي صنعت مجده وقربته من علية القوم والسلطة مهما كانت وفي أي زمن، فهم أقلية ضعيفة يمكن سحقها بسهولة ولم ينجهم من هذا المصير الاسود سوى هذه المهنة التي فسحت مجالاً لهم في مجتمع لا يرحم المخالفين.

يعد الاختلاف من أهم الافكار التي تستحوذ على المساحة الاوسع في ادب الاقليات، حيث يلقن افراد الطائفة منذ الصغر افكاراً عن خطورة اختلافهم وعن خوفهم من الآخر، وهو خوف تبرره الهيمنة العددية والثقافية التي ترفض المختلف ولا تناقش مشاكله بخصوصيته ضمن نسيج المجتمع وباقي مكوناته الاخرى، ولكن زعفران فرد الطائفة الثري وغير المضطر الى التفكير في تلك المحاذير كان يستشعر الاختلاف بطريقة تغايره حتى عن نفسه وليس فقط عن افراد مجتمعه" لم أكن أبداً أنا نفسي. منذ الولادة وأنا صابئي، مختلف، رقم في سلالة دينية لا احد يعرف بالضبط أين بدأت ولا أين ستنتهي، كتاب مقدس، صوت المعمدان يوحنا يدوي في اعماقي، يلفني بخيوط الخوف كسلاسل حديدية لا تصدأ إن فكرت بتجنب تعقب آثاره التي لا يراها سوانا، نحن الصابئة المندائيين3.

هذا الصراع النفسي الذي كان يعيشه زعفران لكونه مختلف ويرفض أن يندرج ضمن مسار الطائفة الديني الضيق، حيث يتوفر لأفرادها عالم بديل عن الوطن محمي بمهنة الصياغة وقربهم من رجالات السلطة; لم يفهمه أبوه، لأن ما كان يهمه عدم خروج ابنه من بغداد، المدينة التي لا يتعين على الساكن فيها أن يثبت هويته الدينية أو العرقية أو حتى الطائفية"4، الى عالم لا يقدر على ضبط ايقاعه بما يجعله يؤمن له مصيراً موثوقاً منه، فالعائلة تسكن بغداد العاصمة حيث الفسحة الاكبر نسبياً في مجتمعٍ عربي تكاد فكرة القبول بالتعدد والاختلاف أن تضيق، ليتركها زعفران مختاراً النفي الطوعي الى كيش كما فاجأ موسى اتباعه بالخروج من مصر الآمنة الى التيه الكبير5.

يستحضر الكاتب قصة موسى وخروجه من مصر، وكأنه يريد أن يلفت الانظار الى الخطر المحدق بالأقليات في الهجرة من العراق، "ففي المنفى لا أثر لضفاف مثل تلك التي توفرها ضفاف دجلة والفرات التي احتضنتهم بحنوٍ آلاف السنين وحفظت كينونتهم"6، والخروج من بغداد هو خروج من طوق الطائفة الامين مع ما ينتظر زعفران في التيه الكبير خارج بغداد ومحاولته الملحة للهرب من روتين السلالة القابض على روحه التواقة الى الانطلاق في عوالم اخرى بعيداً عن المهنة التي توارثوها كلعنةٍ لا فكاك منها"7، وهذه ليست الاشارة الوحيدة او العابرة التي يستعين بها الكاتب في التضمين من اخبار الأولين، فتعدد الاحالات التاريخية والدينية على قصص واحداث ترتبط بأرض العراق ورد قصدياً ضمن حبكة العمل ليذكر بعمق الحضارة التي نشأت على ارض قرية كيش وتنوعها تاركة خلفها شواهد تحكي قصصها مثل الزقورة الهائلة المخصصة لعبادة الآلهة اينانا في 2740 ق. م، أو قصص جلجامش أو اينانا أو دموزي الراعي الذي تولهت به راعية الجمال الربة عشتار، وبغداد عاصمة العباسيين حيث الشهرة والمال، وقصص الانبياء مثل نوح وسفينته، وسليمان وعصاه، مع ما تحمله تلك القصص من دلالات ارتبطت عند الكاتب بحالة اهل كيش، الذين قتل الخوف اعظم لحظات ارتباطهم بالانسانية والوجود وهم يقبعون تحت قدرهم الذي لم يختاروه وهو ينخر قصباتهم ويفرغها من روعتها كما نخر الدود عصا سليمان، 8وهم بعد كل ما يملكونه من إرثً تاريخي ممتلىء بالفخر غير معنيين من تلك القيم سوى بحكايات الماضي، أما هذا الاماكن وقيمها فهي لا تعدو كونها خرائب تصلح لعمل الاسحار ولرمي جثث المقتولات من النساء والرجال، مثلما رميت جثة نادية بعد قتلها من قبل اخيها عيسى

غسلاً للعار، وجثة المنقب الفرنسي الاخير روشار الذي عثروا على جثته مقتولاً في الخرائب9، وسكان كيش لم يختلفوا عمن سبقوهم فمهارتهم تكمن في الاحتيال على بؤس حاضرهم، والاستسلام له.

يحاول السرد استفزاز الاجيال الشابة في البحث عن بدائل للصمود غير الاختباء في كنف الطائفة، وهو ما يحتم استبعاد الخطاب الديني الرسمي واستبداله بروابط جديدة تقوم على الثقافة واللغة والجغرافية، حيث تجسدت هذه الرغبة بحلم جد زعفران في وصول حفيده الى مرتبة دينية متقدمة في الطائفة ليقودها متنور يستطيع التعامل مع مستجدات العصر الجديد، فهم في الطائفة بحاجة في مثل هذا الوقت الى المتعلمين اكثر من صاغة الذهب والفضة، لأنهم باتوا يؤمنون بأنهم لم يعودوا يملكون القدرة على الانعزال الذي لا يوفر لهم البقاء بقدر ما يجعلهم ينقرضون ويعجلون بنهايتهم، فما حل بالعراق من تفتت ودمار لحقهم منه الشيء الكثير بعد أن ابتلعت الحروب الكثيرة التي اشعلها النظام الحاكم في المنطقة اعداداً كبيرة من شبابهم، وما اعقبه من موجات عاتية من هجرة العائلات الصابئية مثل غيرها من العائلات العراقية ممن دفعتها اسباب كثيرة الى الهجرة عن وطنٍ شائك مثل العراق الذي اصبح فيه العيش مجازفة، فالسلاح غير القانوني وجذر العنف يتكدسان منذ اعوام تسبق ولادة زعفران في كل مكان، والجميع يعرف بأنه وقود الجحيم الذي سيأخذهم مثل خط مستقيم لا يخطئ هدفه وسيخسف بالكل10.

سعى الكاتب الى دفع جد زعفران بتحقيق حلمه في أن تكون أرض العراق وطناً لكل ابنائه، وهذا يستلزم قطيعة معرفية بفعل اقتراح رؤية جديدة للعلاقة بين الاقليات وانتماءاتها الهشة، من خلال علمنة العادات والطقوس الدينية، ومن المفيد للجميع رؤية ذلك في السياق الاوسع لتشكل الأمة، وهو تشكل ينطوي بطبيعته على استبعاد للخطاب الديني، ويستبدل بالروابط الدينية التقليدية بروابط جديدة تتجاوز الطائفة، إن ظهور الدولة الأممية الحديثة يستلزم قطيعة معرفية تصبح معها الكينونة التي شكلت الاطار موضوعاً داخل إطار آخر أوسع، إنه انتقال من الذات إلى الموضوع،11وما توثقه االكتابة السردية هنا هو وعي الاقليات بالمصير المشترك لكل من يعيش على ارض العراق بصرف النظر عن انتمائه الطائفي والعرقي، والرغبة في التخلي عن كونهم آخر والاندماج مع باقي المكونات، في تأكيدها على كلمة وطن في اعمالٍ روائية، مقابل افعال واقعية تعمل على تشتيت هذا الوطن وإحلال كيان الطائفة محله، وأن يكون الدين بديلاً عنه، فما كان شاغلاً للسرد طوال صفحات الكتاب هو ذلك الهم الذي يشغل الجميع في رؤية مظاهر العسكرة الشرسة التي اجتاحت العاصمة كطوفان بذاءة وسط حياة في القرية تعيش بعشوائية بلا خرائط منذ زمن البابليين ... والشوارع في غالبية انحاء العراق لا تحمل اسماء، فالبشر يسيرون ويسكنون ويموتون في شوارع بلا اسماء، وهذا ما لم تشذ عنه كيش، فهم لم ولن يشاركوا في صياغة حاضرهم أو مستقبلهم، أما الماضي فملتبس ومليء بالانقلابات العسكرية التي تتسلل الى المناهج الدراسية باسم الثورات12، وليس لهم من الحياة سوى بعض الممارسات التي يعبرون من خلالها عن ارتباطهم بالحياة، مثل تلك العبارات التي تكتب على ظهر الباص أو مقدمته مثل: يا ظالمني، وعلى الأبواب: لسه فاكر ، يا مسهرني13

مثلت رحلة زعفران الى كيش رفض اجيال الأقليات الشابة الاستجابة لمخاوف آبائهم، الذين يحاولون جاهدين التذكير الدائم بأنهم سكان الارض الأصليين، مثلما كان جده يذكر دائماً بأن النبي آدم خلقنا على

ضفاف الفرات في الديوانية بمنطقة كان اسمها سيلان14، فالمكان الحاضن للجماعة هو في نظرهم يعد معطى أساسي من معطيات الهوية، و هذا التأكيد في الانتماء للمكان هو محاولة لإعادة بناء الهوية بعيداً عن المخاطر الضيقة التي تقلق راحة الأقليات، حين يتواجد احد افرادها خارج بيئاتهم، فطريق زعفران الى المدرسة وسط تحيات بعض المارة احدثت لديه انطباعاً مريحاً، فها هو في طريقه للتحول الى جزء من تاريخ القرية العتيقة، امتعه شعور الانتماء الجديد هذا وهو المعتاد ازلاً الانتماء الى طائفة صغيرة ضيقة تحارب كما دون كيشوت ضد الزوال والانصهار... فقد شعر بألفة وحنين إلى زمن لا يعرفه15، في سعيه إلى نوعٍ جديد من الهوية لا تصلح معه افكار الطائفة التي ما عادت تقوى على الصمود بوجه المخاطر التي تعصف بحاضر العراق ومستقبل مكوناته ، وما عادت نافعة كما هي اسلحة (دون كيشوت) القادم من عصر الفرسان، الشخصية الاشهر لرواية دون كيخوتي دي لامانتشا للأديب الاسباني ميغيل دي ثيربانتس16، الذي صدق دون كيشوت كل كلمة في كتب الفرسان التي قرأ الكثير منها، وقرر أن يترك منزله وعاداته وتقاليده ليشد الرحال كفارس شهم يبحث عن مغامرة تنتظره يخوضها بأدواته البالية، ففي مواجهة القوة الساحقة لكل سبل البقاء في العراق اصبحت قضية اعتكاف الطوائف على نفسها وانزوائها بعيداً غير مجدية، وليست الخيارٍ الأفضل للبقاء احياءً، وهي في ذلك تشبه اسلحة دون كيشوت الذي تجول عبر البلاد حاملاً درعاً قديمة ومرتدياً خوذته المهترئة مع حصانه الضعيف، فالاجيال الشابة لم تعد راغبة بالانحباس في معتقد وثقافة ووطن ضيق، وينبغي لها معرفة المعتقدات والثقافات الاخرى داخل الوطن الحقيقي17، ومواجهة نسقاً متهافتاً من عدم قبول المختلف دينياً وفكرياً وعقائدياً تفاجأ به زعفران عندما نصحه زميله الجديد في المدرسة أن لا يبوح بطائفته علناً، فكثير من أبناء هذه القرية متعصبون دينياً ولا يفهمون مسألة الاختلاف هذه، ولكي تجنب نفسك مشقة الاستماع للتعليقات السخيفة من بعض التلاميذ ارجو أن تبقي مسألة ديانتك في الخفاء18.

تعد هذه الكتابة كاشفة لموقع الأقليات الدينية والعرقية، وفاضحة للتحيزات التي تمارسها ثقافة الأغلبية ضد الجماعات الصغيرة19، مدفوعة من قبل المستفيدون من تلك المناطق الفكرية الرخوة في العقل الجمعي التي تبنى على قناعات ملفقة عن باقي المعتقدات الدينية غير المسلمة، وظفها ثابت في قتل زعفران نازعاً تعاطف اهل القرية معه، الذين تتلاعب بهم مشاعر متناقضة تتأرجح ما بين البربرية الفالتة من كل قيد اخلاقي وما بين الشفقة، ربما على انفسهم وهم يعترفون بأسرهم الأبدي داخل دائرة العنف التي لم ولن تتوقف، وكونهم وقود تلك الكرنفالات الدموية، وليس ذلك فقط فمصير زعفران الفردي يشبه إلى حدٍ كبير المصير الجماعي للأغلبية المسحوقة من العراقيين المتمثل في النهب والقتل، والقسم الاعظم من الرواية عن قضايا العراق العابرة للأديان والطوائف والأقليات، تتصدرها في ذلك عداء الانسان العربي لنفسه وتحوله إلى عدوٍ لذاته، يجري استغلاله وتوجيهه بحسب ما ترتئيه السلطة وتمثلاتها في كل مكان من العراق، فسكان كيش مثل الذين سبقوهم مهاراتهم تكمن في الاحتيال على بؤس حاضرهم، وتتجلى بأناقة الكذب ثم رصه كالألماس في الكتب، كملاحم مدعاة للفخر20، يعززه غرورهم كأغلبية مسلمة وشعورهم بالتفوق ربما العددي او انتمائهم الاسلامي على بقية الجماعات المتعايشة معهم في نفس المكان، فالجهل بالحقائق عن الجماعات التي يمارس التعصب ضدها لا يتعلق بقيم دينية ثابتة بقدر تعلق الامر باستغلاله من جانب زعماء

القرية وكبارها الذين سيعبؤون العقل الجمعي فكرياً ضد زعفران بشكلٍ غير مباشر من خلال التغاضي عن مناداته باسمه والاصرار على تسميته بالصابئ/ المختلف، الذي لن يشفع له احد منهم ساعة قتله رغم علمهم بأن ثابت ابن الشيخ جابر هو من احبك اوتاد الفخ لزعفران واتهامه بأنه على علاقة بماريا إبنة أخيه الشهيد، لأنه رفض التعاون معه في ترجمة مذكرات الفرنسي جان ماري روشار ليستدل على الكنز المدفون في كيش، ورغم معرفتهم التامة بالحقيقة فبدوا ككورس مستعد لتأدية دوره التاريخي كأولئك الذين صرخوا قبل صلب المسيح: دمه علينا وعلى احفادنا21 .

رأينا كيف وقف اهل القرية موقف المتفرج، ولم يكونوا معنيين من الامر بشيء غير ترسيخ موقفهم السلبي الدائم من كل ما يجري في حياتهم، ومن الصعب تفسير موقفهم تجاه مقتل زعفران، فهم يعرفون جيداً بأنه لم يكن الفاعل والقضية لها جذورها القديمة قبل مجيء الفتى الى القرية، وهذا ما يجعلنا الكاتب نتوقف عنده لنفتش في تلك الطرق التي لم تعد ملائمة لتنشئة الاسرة وافرادها، لأنها لا تستند الى نمط قيمي متناسق بل تستند في كثير من الاحيان إلى عوامل ثقافية وتاريخية تضع الآخر المختلف في موقع التابع دون إيجاد آليات للانفتاح والحوار معه وتجسير مقاربات مشتركة لخلق نمط من قيم العيش المشترك، وهو ما يبقي على لغة التعصب السياسي والانغلاق الاجتماعي.22، وتغييب فرصة خلق مجتمع تعددي.

لم يرد زعفران تحمل مسؤولية اختلافه فلجأ الى قرية كيش ليعيش مع الجميع بلونٍ واحد، ولكن ما كان يحدث في بغداد من قبول الشراكة على مستوى الجماعة من الصعب حدوثه مع افراد القرية النائية عن كل تمثلات الوعي والادراك، فهم أناس تتآكلهم مشاكل كثيرة مثل الفقر والبطالة ومشاكل اجتماعية ونفسية خطيرة تركت آثارها محفورة في خراب انفسهم يهربون منها بانشغالهم بكل طارئ وغريب يفرغون فيه سيل القهر الذي يلازمهم من سنين طويلة.

والصابئ الذي قرر العيش خارج القطيع بمجيئه الى القرية حديثاً هو موضوع دسم سيجري الاستفادة منه بشتى الطرق سواء بترقب خطواته ورمقه بنظرات الريبة للآخر الغريب، أو بكونه يعيش في مجتمع مسلم ما زالت فيه صورة غير المسلم مشوهة اجتماعياً وثقافياً، حيث يستمر التعاطي الاجتماعي مستنداً الى تفسيرات واجتهادات فقهية وتاريخية مزيفة شتت عقلية العربي المسلم وقيدت نظرته للعالم المحيط به23، مما ترك أثراً مشوهاً عن مختلف القضايا والجماعات في الذاكرة الجمعية التي تختزن صوراً غير واقعية عن الآخر بفعل التنشئة الاجتماعية الخاطئة للأسرة المسلمة، وبسبب التفسيرات الضيقة لنصوص الدين التي ادت الى تبني افكار وسلوكيات عدوانية لن تتوانى تشكيلات السلطة المتمثلة بزعيم القرية وإبنه عن استغلالها لوضعه في خانة الآخر المختلف دينياً، فهو نذير شؤمٍ عندهم، مختلف، غريب، والفصل بينه وبين الآخرين كان بارداً كنصل سكين تتهيأ للذبح000 وهو لا يرقى الى صفوة السكان العاديين لكيش، هكذا انتشر اللقب بل حتى الطلاب لم يعودوا يذكرون إسمه بل دائماً الصابئ000 إن الصابئة والمغايرين الآخرين في نظر هؤلاء هم الوسيط الأمثل لاستحضار الماضي البعيد بمصطلحاته واحقاده، ولقب الذمي يلخص كل الحكاية الطويلة التي لا تنتهي إذا ابتلع البلد ثقب ديني أسود24 .

كل هذه الانفعالات والمشاعر التي تخيل زعفران رؤيتها، تمر من تحت ابواب القرية في تلازم سحيق بين البلادة الايجابية التي تتحكم بايقاع القرية ومصير اهلها وكأنه صيرورة حتمية تلازم اغلب الشعوب التي تستسلم لقدرها بانتظار من يخلصها... كيش والانتظار توأمان متلاصقان...هل عرف صمويل بيكيت شيئاً ما عن كيش وهو يكتب عن خلود الإنتظار، هل كان غودو كيشياً25؟

لم يكن غودو كيشياً، وهذه المسرحية التي كتبها صموئيل بيكيت بالفرنسية حول رجلين يدعيان فلاديمير واستراغون ينتظران شخصاً يدعى غودو لا يصل ابداً26، في اشارة من الكاتب الى ما تؤمن به اغلب الاديان السماوية والديانات الوضعية بوجود المخلص، حيث لا يستطيع اغلب البشر العيش بمعزل عن هذه الفكرة، متكاسلين عن تغيير واقعهم المرير بحجة مجيء المخلص الذي سيغير حياتهم نحو الاحسن.

كانت سياسة الشيخ جابر وابنه ثابت (فرق تسد) استنساخ وتناسل لطريقة السلطة في احكام قبضتها على الشعب من جهة، وصورة لزعماء القبائل الذين سمنهم الحزب الحاكم ليجري استغلالهم وقت الضرورة، وعلى الرغم من إن الشيخ جابر هو صديق عباس الزند والد زعفران وشريكه في تجارة الآثار غير إن ذلك لم يحل دون مصير الصابئي الغريب المتورط بقصص القرية وأقاويلها عندما حاول الوقوف على النقيض من الحقيقة المستقرة، حيث الصقت فيه تهمة الاعتداء على مارية حفيدة الشيخ جابر المعتدى عليها والمغتصبة من جدها نفسه لمراتٍ عديدة وجعلها محضيته، ولم تتمكن جدتها وهي زوجة الشيخ من منعه، ولا حتى منع إبنها ثابت من محاولة الزواج بسليمة أم الفتاة وزوجة اخيه الشهيد، التي ستضطر إلى التخلي عن ابنتها ماريا مقابل حريتها، بعد أن رفضت أن تكون له، واختارت ذاتها مضحية بأمومتها وغادرت كيش إلى الابد بعد أن وضعت ماريا الصغيرة بين يدي جدتها27.

نساء الحكاية: بدرية التي لم تسمع اسمها طوال مدة زواجها بالشيخ جابر، الحجية هو لقبها الذي اشتهرت به في كيش، بل هو كل ما تبقى لها من اسم لم يعد يتذكره ولا حتى هي، وسليمة زوجة الشهيد المصادر رأيها بالزواج من شقيق زوجها كما جرت العادة أيام الحرب العراقية الايرانية، وماريا التي مارس معها جدها سفاح المحارم، وحليمة ارملة احد المفقودين في الحرب، ونادية المقتولة غسلاً للعار، وغيرهن الكثير الكثير، هن انعكاس لواقع آلاف من نساء العراق وأوضاعهن الشائكة اللواتي يقتلن لأسباب تضيع فيها الحقائق، فمريم التي تظهرها الرواية لزعفران بهيئة خيال، هي رقم مجرد من الكينونة الانسانية ، وواحدة من آلاف من النساء المنتهكة حريتهن الجسدية والفكرية اللواتي اضطررن إلى اللوذ بالصمت والعيش في مساحاتٍ معتمة خوفاً من تلقي العقاب بدلاً من الجاني، حيث تقتل سنوياً المئات من المعتدى عليهن غسلاً للعار بناءً على اخبارٍ كاذبة أو أوهامٍ فاسدة مثلما قتل عيسى وهو ابن احد اثرياء مزارعي البطاطا الممنوعة، اخته الاكبر منه نادية، لقد كانت هي ايضاً طالبة في المدرسة..... لأنها صادقت طالباً زميلاً لها في جامعة بابل، بالمصادفة اكتشف ذلك وشوهدا معاً مراتٍ عدة وهما يرتادان الاماكن الأثرية الخالية القريبة، وما اكثرها هنا في مملكة بابل ... فما كان من اهلها بعد انتشار الشائعات سوى اقتياد البنت كالنعجة مع اخيها وابيها وعمها نحو خرائب كيش وذبحها بدمٍ بارد مثل حيوان منذور لإلهٍ سادي، ثم سلم نفسه لمركز الشرطة برأسٍ مرفوع28.

في هذه المجتمعات المرء لا يخشى العقاب، بل العار المفترض، وجريمة كهذه ترفع منزلة الفرد في العرف العشائري الى مرتبة شرف كبيرة ، ولا احد يسائل هؤلاء عن الطرق البشعة التي تتبخر فيها النساء من الحياة في مدافن سرية تختتم قصصهن في المواقع الاثرية التي يقتلن بها، وقد جرت العادة عند سكان هذه المناطق بتسميتها بتلال المخطئات، مثلما تنتشر هذه الظاهرة في اغلب المدن الجنوبية التي تغص بالآثار، ففي مملكة لكش شرقي مدينة الناصرية، مدافن سرية وغير معلنة للنساء ممن يقتلن غسلاً للعار أو ما تعرف بجريمة الشرف، وبحسب اعتقادهم بأن المرأة المدفونة فيها لا تستحق أن تدفن في مقبرة وادي السلام في النجف.

يرتبط هذا النوع من القضايا اللاإنسانية بالخلفية الدينية والعرقية المتعصبة للفاعل وبيئته الثقافية والاجتماعية، ويجسد سخف حياة المرأة أمام قيم آيديولوجية مطلقة لا تعلو عليها رابطة انسانية او اجتماعية، او امام نفسها كذات لها قيمتها الاعتبارية، وفي ظل غياب منظماتٍ انسانية تساعد النساء على مساعدة انفسهن نفسياً واخلاقياً في اجتراح حلولٍ للخلاص مما هن، لا يتبق امامهن سوى اختيار النهاية المخزية لحاكميهم، وهو الانتحار الذي رأت فيه الحاجة بدرية وهي الزوجة الكبرى للشيخ جابر بأنه العقاب الاقسى له ، بتحديد شكل النهاية وزمنها، فقد اختارت شاحنة قادمة من الاتجاه المعاكس فخطت أمامها خطوتها الاخيرة، الشاحنة لم تستطع التوقف النهائي إلا بعد أن تحولت بدرية إلى كرةٍ من اللحم المدمى29، ومثلها ابنة معاون المدرسة الاستاذ محمد هي الاخرى قررت الانتحار كخيار للخلاص مما هي فيه، ومحاولة لكسب نوع من الانتصار بصنع نهاية صادمة ومغايرة للمتوقع.

يؤكد الكاتب بأن احداث الرواية جرت قبل الاحتلال الامريكي للعراق، ورغم ذلك هو لا يتوانى عن صنع شخصية الشيخ جابر وابنه ثابت بطريقة تشبه الى حدٍ كبير ممارسات الرئيس العراقي الاسبق صدام حسين وإبنه عدي الذي خطرت على مزاجه ذات مرة حملة ايمانية تجسدت في منع فتيات بغداد من ارتداء التنورة القصيرة فقام برش الاصباغ على سيقان الصبايا اللواتي يرتدينها، ولا يتردد بالتحرش بزوجة أي ثريٍ أو رجل اعمال في بغداد في محاولة لإذلاله، ومثله ثابت فقد اغتصب العديد من النساء، وهو سلاح استخدمه الشيخ نفسه في شبابه لإذلال الرجال المتمردين على سطوته في القرية30، وهو لا يتردد في نهب ثروات القرية من كنوز الآثار وتهريبها معتبراً الأمر حق مكتسب، حيث يمارس عمليات نهب منظمة للآثار.

خاتمة

*زهير الهيتي ليس صابئياً، ولكنها يطرح رؤية جديدة للادب الجديد في العراق بالتركيز على ثقافة الأقليات وادبهم بشيء من الحيادية وبدراسة معمقة لمجتمعاتهم تتجلى في إعادة النظر بالثوابت والمسلمات القارة في عقلنا الجمعي عنهم، وقد قدم نموذجاً لما يفترض أن يصنعه كتاب الأقلية من أدب ضمن اللغة الرئيسة، وهو بهذا يفتح منفذاً للعبور الى الكتابة بواحدة من قضايا العراق على أساس مبدأ التشارك في هموم واحدة تمس كل المكونات والطوائف.

* وتكمن الخاصية الأخرى لهذا العمل في إن جزء منه إثنوغرافي يعنى بصراع اقليات العراق من اجل البقاء، ويرتكز الحيز الاكبر منه إن كل ما فيه سياسي، ويعمل مجاله على جعل كل شأن فردي يتصل مباشرةً

بالسياسة، نص الأقليات هذا في اشد خصوصياته فإنه يعرض بعداً سياسياً ، فلم تتبنى الرواية الخوف من سحق هويتها فقط بل شاركت هموم الأكثرية همومها المشتركة بهوية الوطن الواحد، لأن مشاكل العراق الكبيرة لا تتعلق بالاقليات والمختلف وعدم قبول الآخر، بقدر ما كانت نتيجة حتمية للسكوت عن معالجة الثغرات العميقة التي ادى القفز عليها الى توظيف قضية الاقليات من قبل جهاتٍ مستفيدة للحصول على مكاسب فردية، دفعت ثمنها الاقليات التي تسكن العراق منذ الأزل وتتشارك مع البقية عناصر التاريخ والجغرافية.

* يقترح الكاتب رؤية جديدة لأدب الأقليات من خلال التغاضي عن كون المكون الديني هو الركيزة الاهم في كتاباتهم، من خلال اكساب كل شيء قيمة جمعية

* تبنى العمل مهمة التعريف بطقوس الطائفة وممارساتها، وهذا كان مهماً لفك الغموض الذي يحيط بهم ويشكل لغزاً يرتبط بالغيبيات وتقصد المغالطات من قبل المتصيدين، مثلما فعل الكاتب وهو يرسم خيطاً وهمياً بكنزا ربا الكتاب المقدس الذي سطرت فيه وصايا المعمدان، وبين العالم الذي لا ينتمي اليه الأكثرية المسلمة، وفكرة احياء اللغة المندائية الميتة تماماً كما فعل اليهود بعد موت العبرية لحقبٍ طويلة.

مصادر الدراسة:

1- الآخر في الادب العربي الحديث، كريستينا فيليبس، ترجمة : خيري دومة، مجلة نزوى، عدد ابريل 2016.

2- دون كيشوت، سارفانتس، ترجمة: صياح الجهيم،دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان، ط1 ، 1999 .

3- الذات العربية المسلمة وصورة الآخر المختلف دينياً وثقافياً، دراسة تحليلية نقدية لأسباب واشكال التعصب السياسي والاجتماعي في العراق، د. دهام محمد العزاوي، مجلة العلوم السياسية، العدد 59 2021 .

4- رواية عش الجمر، دار الساقي، لبنان، بيروت،ط1، 2020.

5- السرد والاعتراف والهوية ، د. عبد الله ابراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 2011

6- الشخصية العراقية من السومرية إلى الطائفية، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ط1 ، 2016 ، 50 .

7- في إنتظار غودو، صمويل بيكيت، ترجمة وتقديم بول شارول، منشورات الجمل ، ط1 ، 2009

1 - رواية عش الجمر، دار الساقي، لبنان، بيروت،ط1، 2020 ، 29 .

2 - عش الجمر،14.

3 - عش الجمر، 10 .

4 - عش الجمر، 10 .

5 - عش الجمر، 14 .

6 - عش الجمر، 21 .

7 - عش الجمر، 10

8 - عش الجمر،20 ، 26 ، 36 ، 136.

9 - عش الجمر، 121 .

10- عش الجمر، 17 .

11 - ينظر: الآخر في الادب العربي الحديث، كريستينا فيليبس، ترجمة : خيري دومة، مجلة نزوى، عدد ابريل 2016 .

12 - عش الجمر، 51 .

13 - عش الجمر، 31 .

14 - عش الجمر، 163.

15 - عش الجمر، 53 .

16 - دون كيشوت، سارفانتس، ترجمة: صياح الجهيم،دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان، ط1 ، 1999 .

17 - ينظر:السرد والاعتراف والهوية ، د. عبد الله ابراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 2011 . 109

18 - عش الجمر ، 58 .

19 - السرد والاعتراف والهوية، 88 .

20 - عش الجمر، 162 .

21 - عش الجمر، 218 .

22 - الشخصية العراقية من السومرية إلى الطائفية، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ط1 ، 2016 ، 50 .

23 - الذات العربية المسلمة وصورة الآخر المختلف دينياً وثقافياً، دراسة تحليلية نقدية لأسباب واشكال التعصب السياسي والاجتماعي في العراق، د. دهام محمد العزاوي، مجلة العلوم السياسية، العدد 59 ، 2021 .

24 - عش الجمر، 179،186،194،208 .

25 - عش الجمر، 76 .

26 - في إنتظار غودو، صمويل بيكيت، ترجمة وتقديم بول شارول، منشورات الجمل ، ط1 ، 2009 .

27 - عش الجمر، 156.

28 - عش الجمر، 129 .

29 - عش الجمر، 158 .

30 - عش الجمر، 115 .